

السلطان

ألف هذا الكتاب «برتر اندراسل» وعربه الأستاذ خيرى حماد.

ويتألف الكتاب من ثمانية عشر فصلا تتابع على النسق التالي:

الحافظ على السلطان - القادة والاتباع - أشكال السلطان - سلطان الكهنوت - سلطان الملوك - السلطان العارى - السلطان الثورى - السلطان الاقتصادى - السلطان على رأى - العقائد منابع للسلطان والفرد - التنافس - السلطان والسفن الأخلاقية - فلسفات السلطان - أخلاقيات السلطان - ترويض السلطان.

أما المؤلف فليس بحاجة إلى التعريف فهو يتصدر فلاسفه عصره وفلاسفته الاجتماعيين بخصب الإنتاج وعمقه وأثره البعيد فى العقول والأفكار... يتوج هذا نضاله المستميت فى سبيل السلام العالمى، والحرية الفكرية والإصلاح الاقتصادى.

لقد قاد وهو فى التسعين من عمره (مظاهرة جماهيرية فى لندن أثارت ضجة عالمية كبيرة، تحدى فيها حكومته وقوانينها، مطالباً بالسلام والعمل من أجله، وداعياً إلى التخلي عن الأسلحة النووية والأحلاف العسكرية).

واعتقلته الحكومة وقدمته إلى المحاكمة وأدانته القضاء الإنجليزى وحكم عليه بالسجن ستة أشهر مع أن القضاء البريطانى يحكم بغير نص مكتوب لتقدير العامل النفسى ونبيل الغرض فى مثل هذه الحالة.

ولد برتراند آرثر وليام رامسل فى انجلترا سنة ١٨٧٢ وهو الابن الثانى للفيكونت (اللورد) امبرلى. ودرس فى صباه دراسة خاصة ثم التحق بجامعة كمبردج حيث حصل بتفوق على شهادتها فى الرياضيات والعلوم الأخلاقية. والتحق بالسلك الدبلوماسى سنة ١٨٩٤ حيث عمل ملحقا بسفارة بلاده فى فرنسا ثم لم يلبث أن تركه حين عين استاذاً بالكلية التى تخرج فيها.

وفى سنة ١٩٠٣ أصدر أول كتبه وهو (مبادئ الرياضيات) ولكنه أخرج من الجامعة سنة ١٩١٤ لغلوه فى الدعوة إلى السلام.. بل صدر عليه من جديد سنة ١٩١٨ حكم يقضى بسجنه ستة أشهر لنشره مقالا فى «التربونال» داعياً إلى السلام.. وفى فترة سجنه وضع كتابه الثانى

(مقدمة للفلسفة الرياضية) كما وضع كاتبنا الأستاذ عباس محمود العقاد في سجنه كتابه (عالم السدود والقيود)..

واتصل انتاجه وتوالت كتبه ومن أشهرها:

(فلسفة لينيتز) - (أبجديات الذرة) - (أبجديات النسبية) (على هامش الفلسفة) - (مقالات شكية) - (الاتجاه العلمي) - (السلطان Power) - (تحقيق في معنى الحقيقة) - (تاريخ الفلسفة الغربية) - (تحليل المادة) ثم - (تحليل العقل) - (السلطة والفرد) - (انتصار السعادة) - (الثرية والنسق الاجتماعي) - (الحرية والتنظيم) - (المعرفة الإنسانية) - (المجتمع الإنساني في أخلاقه وسياساته)، (أثر العلم على المجتمع) - (التغنى بالبطالة) - (المنطق والمعرفة) - (الزواج والأخلاق) - (التصوف والمنطق) - (آمال جديدة في عالم متطور) - (الثرية) - (معرفةنا عن الكون) - (صور من الخيال) - (البشافية في نظريتها وإجراءاتها) - (مبادئ إعادة البناء الاجتماعي) - (لماذا أنا لست مسيحياً)، وغيرها.

ويرى المعرب، أن «برتراندراسل، نسيج وحده في تفكيره، فهو ليس بالاشتراكي، ولا بالماركسي، ولا بالليبرالي، ولا بالمحافظ إنما هو مزيج من كل هؤلاء في وقت واحد، ويطلق على فلسفته الاستقلالية الخاصة اسم (الذرية المنطقية» إذ يجمع فيها بين الفلسفة والرياضيات، وينحو فيها منحى المصلحين النفسانيين الذين يصفون أسمى القيم على الحوافز الخلاقة لا الحوافز المسيطرة على الإنسان، ولكن الاسم الحقيقي الذي يصح إطلاقه على فلسفته، والذي أجمع المفكرون على تسميتها به، هو «الايجابية المنطقية».

وفي فصل (الحافز على السلطان) يقول إن نسبة كبيرة من الجنس البشري، يضطرون إلى العمل المنهك للحصول على ضروريات الحياة ومع هذا يبذل موسرون جهوداً شتى في التأليف الفني والبحث العلمي والتدريس الجامعي.

إنه الغذاء المعنوي والروحي والفني والعلمي وهنا تكمن قيمة الإنسان وهنا يكون التفاضل بين الناس.

ولا يمكن تفسير التاريخ كما يقول برتراندراسل، من قديم وحديث، تفسيراً صحيحاً، إلا على ضوء إدراكنا الحقيقة الواقعة، وهى أن حب السلطان هو السبب في جميع النشاطات الهامة في حقول الشؤون الاجتماعية.

ومن السلطان الثراء، والتسلح، والسلطان المدنية، والتأثير على الرأي العام. وعنده أن أشبع ألوان السلطان هو السلطان العارى، ويكون السلطان عاريا، عندما يحترمه أتباعه لمجرد أنه سلطان، لا لأى دافع آخر.

وترتبط معظم مخازى التاريخ البشرى، بالسلطان العارى، ليس فقط بالمخازى المرتبطة بالحروب وحدها، بل المخازى الأخرى أيضا، التى لا تقل عنها فظاعة وإن كانت أقل منها بروزا.. ومن هذه المخازى: الرق وتجارة الرقيق، واستغلال الكونغو، وفظائع اليهود الأولى للشورة الصناعية، والوحشية فى معاملة الأطفال فى المصانع، والتعذيب القضائى فى السجون، والقوانين الجنائية، والسجون، والمشاكل، والاضطهاد الدينى، وآثام الطفلة، والجور فى معاملة الخصوم وضحايا العزل من الذين لاحول لهم ولا قوة.

لاندحة عن وجود سلطان ولكن برتراندراسل يرى أنه إذا أريد للحياة الإنسانية، أن تكون بالنسبة إلى جماهير الجنس البشرى، أفضل وأجدى من مجرد شقاء رتيب، تقطع رتابته لحظات من الفزع الشديد، فإن من الضرورى أن يكون هذا السلطان العارى أقل ما يمكن.. وأن يكون محاطا بالضوابط والقوانين التى يضعها من عرفوا بعملهم فى سبيل مصلحة الأتباع الذين يتولون رعاية شؤونهم.

ولعل من غير المجدى، توكيد الثقة فى فضائل شخص معين أو مجموعة من الأشخاص، ففكرة «الملك الفيلسوف» قد غدت منذ عهد بعيد حلما كاذبا، بينما يرحب الناس بفكرة «الحزب الفيلسوف» على أنها اكتشاف جديد وعظيم على الرغم من خطئها الذى يعادل خطئ الفكرة الأولى.

ويسخر برتراندراسل من السلطان الاقتصادى فهو عنده لايعتمد على القانون إلا فى القضايا الصغيرة التى لا أهمية لها، أما فى القضايا الكبرى، فهو يعتمد على الحرب أو التهديد بها. ويضرب مثلا بسيطرة شركة الزيت الانجليزية الايرانية على جنوب إيران، أما الولايات المتحدة فتعود ملكية الزيت إلى شركات معينة تزعم لنفسها ادعاء قانونى فيه ولأن قوات الولايات المتحدة المسلحة، على استعداد لإنقاذ القانون، أما الهنود الحمر، الذين كانوا يملكون المناطق التى تقع فيها حقول الزيت هذه، فقد فقدوا حقهم القانونى فيها، لأنهم هزموا فى الحرب.

كما تعود ملكية مناجم الحديد في مقاطعة اللورين، إما إلى مواطني فرنسا أو إلى مواطني ألمانيا، تبعاً لانتصار هذه أو هزيمة تلك في آخر حرب وقعت بين البلدين... وهكذا.

ويؤمن برتراندراسل بسلطان الرأي ويراها ركيزة لسلطان العلم ولهذا تدأب الدول في عصرنا الحاضر، في الدول المتحضرة، على تشجيع العلم، ولكن الحالة لم تكن على هذا النحو في مستهل النهضة العلمية كما يقول فقد أرغم «جاليليو» على الانسحاب والتراجع، ولحق الضيق «نيوتن» بتعيينه مديراً لصك النقود، وأعدم «لافوازييه» على المقصلة على اعتبار أن (الجمهورية لا تحتاج إلى العلماء)!!

ويمضي برتراندراسل في سخريته بقوله:

(ويحبس المجانين الذين ثبت جنونهم في أماكن معزولة، وذلك بسبب ما يبدو أنه ميل إلى العنف، عندما يشك الناس في ادعاءاتهم، أما المجانين الذين لم يثبت جنونهم بشهادات طبية، فيعطون السيطرة على جيوش قوية، ويستطيعون إيقاع الموت والكوارث بجميع العقلاء من الناس، الذين يقعون في متناول أيديهم. ونجاح الجنون في الأدب والفلسفة والسياسة هو من إحدى غرائب عصرنا الحالي. ويكون هذا الشكل الناجح من الجنون، ناجماً إلى حد كبير أو كلي، عن حوافر السلطان).

وفي فصل (ترويض السلطان) يحكي برتراندراسل قصة طريفة مؤداها أنه عندما مر كونفوشيوس على بالقرب من من جبل ثاي، أبصر امرأة كانت تقف إلى جانب أحد القبور وتبكي بمرارة وحرقة. فسارع المعلم إليها... وبعث بتسى - لو، يسألها... إنك لتبكين يا امرأة وكأنك احتملت الأحزان فوق الأحزان» فردت المرأة تقول: «وكذلك الأمر... فقد قتل نمر من قبل والد زوجي في هذا الموقع... وقد قتل زوجي أيضاً... وها هو ولدي قد مات نفس الميتة أيضاً». فقال المعلم، ولماذا، لماذا لم تتركوا المكان؟» فردت المرأة «ليس هنا حكومة ظالمة» فقال المعلم آنذاك: «تذكروا قولها، يا أولادي: إن الحكومة الظالمة أشد فظاعة من النمرة».

وقد عرض برتراندراسل لجميع ألوان الحكم من عسكري «أوتوقراطي» والحكم بأمر الله «التيوقراطي Theocracy» والملكية الوراثية، وحكم القلة، والنظام الديمقراطي، وحكم القديسين، الذي ساد بعد فشل تجربة كرومويل وعاد يبعث من جديد على أيدي لينين وهتلر.

ويخرج من هذا بأن مشكلتنا لم تحل بعد ومن هنا يقول:

(يجب أن يتضح لكل من يدرس التاريخ أو الطبيعة البشرية، أن الديمقراطية، على الرغم من أنها لا تشكل الحل الكامل، إلا أنها جزء جوهري من الحل).

وهو يعتقد أن العالم إذا تخلص في يوم ما من الخوف من الحرب، فإنه يستطيع مهما كان شكل الحكومة القائمة فيه، أو النظام الاقتصادي الذي يسوده، أن يجد السبل في الوقت المناسب لكبح مالدي حكمه من شراسة.

ويختتم براتراندراسل، كتابه الكبير بقوله:

على النحو الذي نعلم فيه أطفالنا تجنب الموت تحت عجلات السيارات إذا استطاعوا، يجب أن نعلمهم تماما، تجنب تدمير أنفسهم بخيالات فظيعة، وعلينا تحقيقا لهذه الغاية أن نعمل على إنتاج الاستقلال الفكري، القائم جزئيا على الشكية، وكليا، على العلم، وأن نحفظ جهد طاقاتنا، ما في الحياة من مرح غريزي، يكون فطريا عند الأطفال الأصحاء وهذه هي مهمة التربية الحرة (الليبرالية)، أي إضفاء معنى من القيم على الأمور دون حصره في السيطرة، والعمل على خلق مواطنين عقلاء، في جماعة حرة، وتمكين الناس عن طريقة الجمع بين الرعوية والحرية في ظل الخلقة الفردية، من إضفاء ذلك الرواء على الحياة الإنسانية، الذي تمكن البعض من إظهار طاقاتهم على تحقيقه.

كتاب يستحق أن تقرأه الشعوب والحكام على سواء.

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٦٤٤٥

ISBN : 977-281-209-6